الفصل الأول
مفهوم التصوف ودور الرياضات العملية في تهذيب السلوك

أولاً: معنى التصوف لغة واصطلاحًا.

ثانياً : الرياضات العملية ودورها في تهذيب السلوك وأسانيدها من الكتاب والسنة.

١- مجاهدة النفس بالرياضات العملية.

أ- الصلاة.

ب- الصوم.

ج- السهر.

د- الدعاء والأوراد.

هـ- الصمت.

و- العزلة والخلوة.

س- الذكر.

ص- السماع.

الفصل الأول
مفهوم التصوف ودور الرياضات العملية في تهذيب السلوك

أولاً: معنى التصوف لغة واصطلاحاً

١-معنى التصوف في اللغة:

لم تعرف كلمة تصوف mysticism قبل القرن الثاني الهجري ولم يرد ذكرها في الكتاب والسنة وهذا كان من العوامل التي استند إليها من هاجموا التصوف فهم يرون أن هذا النمط مستحدث لم يعرف في عهد الرسول ولم يعرفه الصحابة ولا التابعين[1].

ولذلك اختلفت الآراء حول تاريخ ظهور هذه الكلمة.

وكلمة صوفي مشتقة من الصوف وهو ملبس خشن يتمثل في رداء من فراء الخراف دليلا على الزهد والتقشف فيقال تصوف أي لبس الصوف، وهذا هو الاشتقاق السليم للكلمة، فقد نسب التصوف غلى الصفاء غير أن الاشتقاق اللغوي من الصفاء يكون صفاىء وليس صوفي.

---

(١) كان الرجل المسلم هو المرأة المسلمة في عهد الرسول يدي صحبي أو صحابيه إذا كان متفقا في الدين وكان حريصا على حفظ القرآن والسنة والعمل بهما ثم بعد ذلك كان يطلق على صفوة المسلمين المتفقهين في الدين لفظ التابعين ثم أتباع التابعين وعندما عرف العرب المسلمون الوان من الترف والنعيم لم تكن موجودة في الجزيرة العربية بعد الفتوحات الإسلامية في بلاد الشام والفرس والعراق ومصر وغيرها انصرف الكثيرون منهمن إلى التمتع بهذه النعم وشغلهم ذلك عن التمسك بالدين كما كن حال أصحابه والتابعن ومن ظل منهم على حاله من عدم الانشغال بهذه المباهج الدنا وبه كان يطلق عليه لفظ زاهد أو عابد أو ناسك وبه كان يطلق عليه لفظ زاهد أو عابد أو ناسك وغيرها من الألفاظ التي تميزه عن كافة المسلمين حتى ظهر لفظ صوفي في القرن الثاني الهجري وقد أطلق أول ما أطلق على رجل عربي من الكوفة يدعي أبو هاشم الكوفي المتوفي سنة ١٥٠ هـ.

انظر القشيري الرسالة، د. محمد مصطفى حلمي الحياة الروحية في الإسلام ص ٨٥.

كما قيل: إنها مشتقة من الصف نسبة إلى من كانوا يصطفون في الصلاة خلف رسول الله في الصف الأول حرصا منهم على أن يكونوا أول الوافدين إلى المسجد للصلاة.

وقيل أيضًا: أنها من الصفوة نظرا إلى أن الصوفية هم صفوة العباد والمتقربين إلى الله والحقيقة أن الانتقال اللغوي من الصفوة هو صفوي وليس صوفي، وكذلك الاشتقاق اللغوي من الصفوة هو صفوي وليس صوفي أيضًا، كذلك نسبت كلمة صوفي إلى الصوفانة وهو نبات صحراوي يعيش على القليل من الماء والغذاء.

وهكذا حال الصوفية وإن كان هذا صحيح من الناحية المعنوية والأخلاقية فإنه ليس صحيحا من الناحية اللغوية لأن الاشتقاق اللغوي من الصوفانة هو صوفاني وليس صوفي.

ولا ريب أن جميع هذه الألفاظ التي نسب إليها التصوف أو الصوفي صحيحة من الناحية المعنوية فالصوفي حريص على العبادة والتقرب إلى الله وهو إنسان صافي النفس، ويعد من صفوة المسلمين، وهو أيضا يكتفي بالقليل من المأكل والمشرب، زهدًا في الدنيا ولكن ذلك لا يعني أن كلمة صوفي مشتقة من هذه الألفاظ.

كذلك شب الصوفي إلى أهل الصوفة وهم جماعة من فقراء المهاجرين والأنصار قد بني لهم الرسول صلى الله عليه وسلم خلف مسجده مسكنا للإقامة والتعبد أطلق عليه صفة فكانوا يأخذون أنفسهم بالمجاهدة ويكثرون من الصلاة والتعبد، وهؤلاء وإن كان حالهم يتشابه مع حال الصوفية إلا أن الانشقاق اللغوي للكلمة لا يستقيم إذ أنه يكون صفي وليس صوفي.

كذلك نسبا الصوفي إلى صوفيا وهي كلمة يونانية تعني الحكمة ولا ريب أن الصوفي يعد أحكم الحكماء لأنه أدرك ببصيرته النافذة وسريرته النقية أن أفضل الدارين هو الدار الآخرة وأن التقرب إلى الله بتطهير النفس وكمال الأخلاق هو أسلم الطرق إلى السعادة الدائمة في الدنيا والآخرة.

ورغم ذلك فإن كان هذا المعنى صحيح من الناحية المعنوية إلا أنه عكس ذلك من الناحية اللغوية لأن النسبة إلى صوفيا سوفي.

وهكذا اختلفت الآراء حول تاريخ ظهور كلمة صوفي وصول الأصل اللغوي الذي ترجح إليه هذه الكلمة[(١)].

ويقول الطوسي في كتابه "اللمع" حول هذا الأمر فلما أضفتهم (أي الصوفية) إلى ظاهر اللبة كان ذلك أسما مجملا عاما مخبرا عن جميع العلوم والأعمال والأخلاق والأحوال الشريفة المحمودة.

ألا ترى أن الله تعالى ذكر طائفة من خواص أصحاب عيسى عليه السلام فنسبهم إلى ظاهر اللبة فقال عز وجل : ﴿إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ﴾ [المائدة:١١٢][(٢)].

وكانوا قومًا يلبسون البياض ، فنسبهم الله تعالى إلى ذلك ولم ينسبهم إلى نوع من العلوم والأعمال والأحوال التي كانوا بها مترسمين، فكذلك الصوفية عندي – والله أعلم – نسبة إلى ظاهر اللباس، ولم ينسبوا إلى نوع من أنواع العلوم والأحوال التي هم مترسمين.

لأن ذلك الصوف كان دأب الأنبياء عليهم السلام والصديقين وشعار المساكين المتنسكين.

وقيل في تسمية أصحاب عيسى عليه السلام بالحواريين لأنهم كانوا قصارين يغلون الثياب أي يحورونها وهو التبييض[(٣)].

---

(١) انظر: القشيري : الرسالة ص ٨٠٧ وانظر أيضا أبو الريحان البيروني: تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة ص ١٦-٢٠ وأنظر ايضا الطوسي اللمع وزكريا الأنصاري تاريخ الرسالة القشيرية وابن خلدون: المقدمة.

(٢) س المائدة آية ١١٢

(٣) الطوسي: اللمع ص ٧

٢- معنى التصوف والصوفي اصطلاحياً:

التصوف هو علم القلوب وهو يبحث في أحوال النفس الباطنة، ويسعى إلى تصفية القلب والتطهير والتجرد ويؤدي إلى الاتصال بالعالم العلوي.

فهو قائم على تصفية القلب عن الشهوة والهوى ومفارقة الأخلاق الذميمة وإخماد صفات البشرية ومجانية الدعاوي النفسانية، ومنازلة الصفات الروحانية ، والتعلق بعلوم الحقيقة[١].

وقال معروف الكرخي (ت ٢٠٠ أو ٢٠١) :" التصوف هو الأخذ بالحقائق واليأس مما في أيد الخلائق[٢].

وهذا التعريف للكرخي يذهب فيه إلى أن التصوف هو علم الحقيقة فهدفه معرفة حقيقة الحقائق وهو الله سبحانه وتعالى وعدم النظر لما في أيدي الناس مما يطمع فيه الإنسان من ملذات الدنيا وأهوائها من مناصب وجاه وسلطان فقد صار جل الاهتمام بالله وملك حبه تعالى كل جوارح الصوفي المتقرب إليه.

ويعرفه ابن محمد الحريري (ت ٣١٠ هـ) بقوله :" التصوف هو الدخول في كل خلق سني والخروج من كل خلق دني[٣]"

وذلك يعني أيضا أن الصوفي يتجه إلى الله باتباع الأخلاق الإسلامية والاقتداء بالرسول الكريم (ص) والترفع عن الأخلاق الذميمة.

وقال رويم (ت ٣٠٣ هت) "التصوف مبني على ثلاث خصال: التمسك بالفقر والافتقار، والتحقق بالذل والإيثار وترك التعرض والاختيار[٤].

---

(١) الجرجاني: التعريفات ص

(٢) انظر القشيري: الرسالة ص ١٢٦

(٣) المرجع السابق نفس الصفحة

(٤) القشيري: الرسالة ص ١٢٦.

وهذا التعريف يوضح الأسس التي يبني عليها التصوف وهي التمسك بالزهد والفقر والتحقق بالذل لله وفي ذلك عزة للإنسان والاتصاف بالإيثار وهو عدم الأنانية وإسقاط التدبير والتوكل على الله في كل الأمور.

وعرف الجنيد (ت ٢٩٧ هـ) التصوف بقوله :" هو أن يميتك الحق عندك ويحيك به " وقال أيضا :" التصوف ذكر مع اجتماع ووجد مع استماع وعمل مع اتباع[١].

وهذان التعرفان يحملان نفس معنى التعريفات السابقة ويثير التعرف الثاني إلى حال الوجد الذي يشعر به الصوفي عند السماع والذكر.

وعرف التصوف بأنه :"طريقة سلوكية قوامها التقشف والتحلي بالفضائل لتزكو النفس وتسمو الروح"[٢] وعرف علم التصوف بأنه مجموعة المبادئ التي يعتقدها المتصوفة والآداب التي يتأدبون بها في مجتمعاتهم وخلواتهم[٣].

وقد عرف بشر بن الحارث الحافي (ت ٢٢٧ هـ) الصوفي بقوله :" الصوفي من صفا قلبه لله"[٤].

وهذا التعريف يعول على صفاء قلب الصوفي من كل ما يكده ويدنه، فقلب الصوفي خال من الأحقاد، والغيرة، والحسد، والكراهية، وجميع الصفات الذميمة.

كما أنه خال من حب الشهوات، والهوى، وحب الشر، والرياء وهو عامر بحب الله وحب الخير، وحب الناس، فهو في عبارة موجزة تصفي وتطهر وتنفي بتخلصه من كل خلق ذميم، وتحليه بكل خلق كريم، والتزم بالشرع في أقواله وأفعاله.

وقد عرف بندار بن الحسين (ت ٣٥٣ هـ) الصوفي بقوله: الصوفي من اختاره الحق لنفسه فصفاه وعن نفسه فبرأه ولم يرده إلى تعمل وتكلف بدعوى[٥].

---

(١) المرجع السابق ص ١٢٧

(٢) المعجم الوجيز : الصادر عن مجمع اللغة العربية ١٤١١ هـ و ١٩٩١ م ص ٣٧٤.

(٣) المرجع السابق نفس الصفحة.

(٤) الكلبازي: التعرف لمذهب أهل التصوف ص٥.

(٥) الكلبازي: التعرف لمذهب أهل التصوف ص ٥.

وهذا التعريف يبرز اصطفاء الله سبحانه لأوليائه فيختارهم من بين الناس، فيصفي قلوبهم ويطهرها بحبه وحب كل ما يحبه تعالى.

ويجنبهم كل ما يبغضه تعالى من الانسياق للنفس الأمارة السوء. فهم لا يعملون إلا ما يرضي الله ويقربهم إليه.

وعرفه أبو علي الروزباري (ت ٣٢٢ هـ) بقوله :" الصوفي من لبس الصوف على الصفا، وأطعم الهوى ذوق الجفا، وكانت الدنيا منه على القفا، وسلك منهاج المصطفى[١].

وهذا التعريف أيضا يوضح أن الصوفي هو من يلبس الصوف ولكن ليس مظهرا خارجيا وإنما يكون قلبه أيضًا صافيا، فيتم ظاهره عن باطنه.

فهو إنسان حريص على أن يطوع نفسه الأمارة بالسوء لنفسه المطمئنة وزهد في الدنيا وعرضها واتبع في سلوكه وقوله الهادي المصطفى محمد صلى الله عليه وسلم، فكان مثله وقدوته.

وعرفه سهل بن عبد الله التستري (ت ٢٨٣ هـ) بقوله : "الصوفي من صفا من الكدر، وامتلأ من الفكر[٢]. وانقطع إلى الله من البشر، واستوى عنده الذهب والمدر".

وهذا التعرف أيضا للصوفي يهتم بإظهار أن الصوفي من صفى قلبه من أدران الشهوة وطهره بحب الله والتقرب إليه بطاعته، والتفكر فيه تعالى وانشغال خاطره به، عمن سواه، وهو أيضًا من اعتزل الناس وأنس بالقرب من الله وزهد في الدنيا فتساوى عنده الذهب والتراب، وكلها أعراض دنياوية زائلة.

وتعريفات التصوف والصوفي عديدة وكثيرة نجدها في كتب الصوفية مثل كتاب "اللمع" لأبي العباس بن مسروق الطوسي (ت ٢٦٩ هـ) و"الطبقات الصوفية" لأبي عبد الرحمن السلمي الذي ولد بخرسان سنة ٣٢٥ هـ وهو أستاذ الجويني إمام الحرمين والقشيري صاحب الرسالة القشيرية. الذي ولد سنة ٣٧٦ هـ وتوفى ٤٦٥ هـ بمدينة

---

(١) الكلبازي: التعرف لمذهب اهل التصوف ص ٦،

(٢) المرجع السابق نفس الصفحة.

نيسابور وكتابه الرسالة القشيرية زاخر بأعلام الصوفية وتعريفاتهم للتصوف وكتاب الحسن بن الكوهن: "جامع الكرامات العلية في طبقات السادة الشاذلية".

والتصوف هو زبدة عمل العبد بالشريعة فهو علم بالشريعة وعمل بها.

والتصوف سيكولوجيا: حالة نفسية يشعر فيها المرء بأنه على اتصال بمبدأ أسمى[١]. وفلسفيا: التصوف نزعة تقوم على الخيال، والعاطفة، أكثر مما تقوم على العقل والتجربة الحية.

ويطلق على التصوف الإسلامي sufisme ويجب التفرقة بين هذا وبين السفسطة sophisme[٢].

نخلص من ذلك إلى أن التصوف هو التوجه إلى الله بالكلية والانشغال به تعالى عمن سواه من الحادثات ويكون ذلك عن طريق التفقه في الدين ومعرفة التشريعات الإسلامية والعمل بها عملا مخلصا.

فيأتمر الصوفي بما أمر الله وينتهي عما نهى ويقتدي بالرسول الكريم صلى الله عليه وسلم في أقواله وأفعاله، ويطهر نفسه من أدران الشهوة والهوى ويجاهد نفسه الأمارة بالسوء ويطوعها لنفسه المطمئنة فيزكي فيها الخير وينقيها من الشر، أو كما يقول الصوفية يعمل لنفسه عملية تخلية من الصفات الذميمة، وتحلية، أي يحليها بالصفات الحميدة، ويكون ذلك عن طريق، الرياضات العملية من صلاة، وصوم ، وذكر ، وعزلة، وخلوة، وسهر، وتهجد وسما، وهجرة في الله، ودعاء وغيرها.

ويجاهدها بالرياضات الروحية، بأن يتحقق بالمقامات الصوفية كالتوبة، والزهد والمراقبة، والمحاسبة، والتوكل، والإخلاص، والخوف والرجاء، والصدق، والورع، واليقين، والمحبة، والقرب والرضا وغيرها حتى يصل في النهاية إلى الغاية الكبرى من

---

(١) انظر المعجم الفلسفي : الصادر عن مجمع اللغة العربية تصدير د. إبراهيم مدكور ص ٤٦ وأنظر أيضًا :

Nickolson: origin and development of sofism: p. ١٩٠-١٩١ ١٩٠٦

(٢) هناك فرق بين الشهوى والهوى فالشهوة تكون للذات الحية والهوى يكون حب الرئاسة وتقلد المناصب وحب السيطرة والتحكم.

التصوف وهي التحقق بالمعرفة القلبية لله عن طريق نور يقذفه الله في قلبه أو الحدس القلبي الذي يكون من لدن الله تعالى فيعرف ربه حق المعرفة، ولأنها معرفة بالله ومن الله فإنها تكون معرفة يقينية لا يتطرق إليها شك وتورثه سعادة غامرة دائمة[1].

وكثيرا ما يفيض الله على قلب الصوفي ونفسه العديد من المشاعر والأحوال النفسية التي تكون مواهب من الله دون تعمد من الصوفي، وإن كانت هذه الأحوال ثمرة لما يقوم به من مجاهدات ورياضات عملية وروحية.

تلك الأحوال مثل حال الأنس، وحال البسط، وحال القبض، وحال الخوف، وحال الفناء وحال البقاء.

فإذا ما أخذ المريد نفسه بالمجاهدات والتزم بالطاعات وصدق في سلوك طريق الصوفية، أنعم الله عليه بالمعرفة الكثيفة الذوقية بالله، وإذا ما تحقق الصوفي بمعرفة الله معرفة قلبية، صار من أولياء الله الصالحين، وأحباء الله المقربين، وسعد سعادة الدنيا والآخرة. وصار ضمن من قال الله فيهم: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس: ٦٢]. وقال تعالى عنهم : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٥﴾ [البقرة:٥] وقال تعالى فيهم : ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٣٨﴾ [الروم:٣٨] وقال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة:٢٢].

يقول الإمام القشيري (ت ٤٦٥ هـ) في "الرسالة" : قد جعل الله هذه الطائفة صفوة أوليائه، وفضلهم على الكافة من عباده بعد رسله وأنبيائه صلوات الله عليهم، وجعل قلوبهم معادن أسراره. واختصهم من بين الأمة بطوالع أنواره.

فهم الغياث للخلق والدائرون في عموم أحوالهم مع الحق بالحق، صفاهم من كدورات البشرية، ورقاهم إلى محال المشاهدات بما تجلى لهم من حقائق الأحدية، ووفقهم للقيام بآداب العبودية، وأشهدهم مجاري أحكام الربوبية، فقاموا بأداء ما عليهم

---

(١) انظر: نيكلسون: في التصوف الإسلامي وتاريخه ص ٣٩ القاهرة ١٣٨٨ هـ/ ١٩٦٩م .

O, leary : Arabic thought and its place in history: p. ١٩٠.

من واجبات التكليف وتحققوا بما منه سبحانه لهم من التقلب والتصريف، ثم رجعوا إلى الله سبحانه وتعالى بصدق الافتقار ونعت الإنكار، ولم يتكلوا على ما حصل منهم من أعمال، وصفا لهم من الأحوال، علما منهم بأنه جل وعلا يفعل ما يريد[١].

ويذهب الإمام القشيري إلى أن الصوفية المحققين قد انقرض أكثرهم ويقول :" لم يبق في زماننا هذا من هذه الطائفة إلا أثرهم[٢]. ويرى أن الشباب قل إقباله على الله، والعمل بشريعته، وزال عنهم الورع وكثر فيهم الطمع، ولم يعد الكثير منهم يفرق بين الحلال والحرام، ويلتزم بالاحترام والاحتشام، واستخفوا بأداء العبادات، ويقول في ذلك حصلت الفترة في هذه الطريقة لا بل اندثرت الطريقة بالحقيقة مضى شيوخ كان بهم اهتداء وقل الشباب الذين كان لهم بسيرتهم وسنتهم اقتداء وزال الورع وطوى ببساطة، واشتد الطمع وقوى رباطه، وارتحل عن القلوب حرمة الشريعة فعدوا قلة المبالاة بالدين أوثق ذريعة، ورفضوا التمييز بين الحلال والحرام، ودانوا بترك الاحترام والاحتشام، واستخفوا بأداء العبادات واستهانوا بالصوم الصلاة، وركضوا في ميدان الغفلات، وركنوا إلى اتباع الشهوات وقلة المبالات بتعاطي المحظورات[٣].

وإذا كان الحال هكذا في عصر القشيري فما بال شباب أيامنا هذه.

---

(١) القشيري: الرسالة ص ٢

(٢) المرجع السابق نفس الصفحة.

(٣) القشيري ، الرسالة ص ٢-٣، وانظر أيضًا : نيكلسون: الصوفية في الإسلام ترجمة نور الدين شريبة، القاهرة ١٣٧١هـ/ ١٩٥١م.

ثانياً: الرياضات العملية ودورها في تهذيب السلوك وأسانيدها من الكتاب والسنة:

يهدف التصوف إلى إيجاد الإنسان الكامل أخلاقيا الملتزم بالشرع والذي تطهرت سريرته وصفت نفسه، وتعلق قلبه بالله حتى ضعفت بشريته وقويت روحانيته وصار أهلا لتقبل الفيوضات الإلهية والمعرفة الذوقية القلبية بالله ومن الله.

وإن كان التصوف علم بالشريعة وعلم بها فلابد أن يكون مصدره الكتاب والسنة، وليس هذا هو القول الفصل في هذه المسألة بل الأمر ليس بهذه البساطة، وهذا اليسر، فهناك من الآراء ما أرجع التصوف إلى مصادر أجنبية غريبة عن الإسلام.

ويصور ذلك المستشرق ماسينيون في دائرة المعارف الإسلامية[١] بقوله : أما دراسة التصوف فإن الأمد بيننا وبين استكمالها ما يزال بعيدا، وقد حار علماء الإسلاميات الأول في تذليل ذلك الخلاف الكبير في العقيدة، بين مذهب الوحدة وبين مذهب أهل السنة الصحيح، فذهبوا إلى أن التصوف مذهب دخيل في الإسلام، مستمد أما من رهبانية الشام وأما من أفلاطونية اليونان الجديدة، وأما من زرادشتيه الفرس وأما من فيدا الهنود"[٢].

---

(١) the Encyclopeadia of islan: volum, IV, ١٩٣٤

(٢) ذهب أبو الريحان محمد بن أحمد البيروني (٣٥١-٤٤٠ هـ، ٩٦٣-١٠٤٨) في كتابه تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة الذي درس علوم الهنود وكتب عن معتقداتهم والذي كان ملما بلغتهم وعاش بينهم ووصف أحوالهم ذهب إلى أن هناك تشابه بين المذاهب الهندية في رياضة النفس ومجاهدتها والمعرفة القلبية وبين ما نجده في هذا الشأن عند صوفية المسلمين وقد ذهب جونس jones إلى ان مصدر التصوف هو مذهب الفيدا الهندي ومن المستشرقين أيضا الذين ذهبوا إلى مثل ذلك الراي هورتن horten وبلوشيه blochet وما سيبون Massignon وجولدزيهي goldziher ويرون brown وأولبري o.leary وغيرهم أنظر د. محمد مصطفى حلمي الحياة الزوجية في الإسلام في حديثه عن المصدر الهندي من ص ٣١-٣٩ وقد ذهب البيروني أيضا في الآثار الباقية إلى أن هناك شبه بين الزهد والتقشف بين الديانة المانوية والفارسية (نسبة غلى ماني مؤسس الديانة ولد سنة ٢١٥ و ٢١٦ م) وبين التصوف وبينه وبين الديانة المازدكية (نسبة إلى مسردك حلمي الحياة الزوجية في الإسلام من ص ٤٠-٤٢ يتحدث عن المصدر الفارسي للتصوف.

وقد عرض المرحوم الأستاذ الدكتور محمد مصطفى حلمي لهذه المسألة الخاصة بأصل التصوف الإسلامي ومصدر الحياة الروحية[١] وتناقش بالتفصيل آراء الباحثين والمستشرقين الذين درسوا هذا الموضوع والذين نسبوا التصوف إلى أصل هندي، أو فارسي أو نصراني أو يوناني وله تعليق على آرائهم جاء فيه :ط يبقى بعد هذا أن نتساءل قائلين: ألا يصح أن يكون التصوف في أول نشأته نتاجا تلقائيا مستقلا عن كل العوامل الدينية والفلسفية الأجنبية؟

والحق أن قولا كهذا لا يبعد أن يكون صحيحًا، وملائمًا لطبيعة الأشياء إلى حد ما.

إن لم يكن كذلك إلى حد بعيد فالنفس الإنسانية هي بعينها في كل أفراد الإنسان وهي التي إذا خضعت في هذا الإنسان أو ذاك لألوان بعينها من المجاهدات، والرياضات، وصلت في هذا الإنسان أو ذاك إلى درجة واحدة من الصفاء الروحي والنقاء القلبي".[٢]

وينتهي إلى أن مصدر الحياة الروحية في الإسلام مستمد أساسا من حياة الرسول متحنثًا في غار حراء قبل الإسلام ومن حياته بعد الإسلام ومن سلوك الصحابة وما كانوا يصطنعونه من زهد ورع وتوكل ومما جاء في القرآن الكريم من آيات تحث على الزهد والورع والتقوى والإحسان والتوكل والصبر وغيرها.

=

كما ذهب فون كريمر von kremer وغيره من الباحثين إلى أن مصدر التصوف نصراني لتشابه حياة الرهبان بحياة الصوفية في الرياضة ومجاهدة النفس المرجع السابق ص ٤٤-٤٥. وانظر أيضًا :
Nicholson: mysticism of islam, p. ٣٠

(١) لمعرفة المزيد عن المصادر الأجنبية التي نسب إليها التصوف أرجع إلى نيكلسون : التصوف الإسلامي وتاريخه القاهرة ١٣٨٨ هـ/ ١٩٦٩ م وانظر أيضًا د. محمد مصطفى حلمي: الحياة الروحية في الإسلام من ص ٢٥ إلى ص ٦٦.

(٢) د. محمد مصطفى حلمي: الحياة الروحية في الإسلام انظر من ص ٢٥ إلى ص ٦٧ – وانظر أيضا د. أبو الوفا الغنيمي التفتازاني : مدخل إلى التصوف الإسلامي.

وإذا تتبعنا الرسوم والعبادات والمجاهدات والرياضات العملية والروحية والمواجيد والأذواق والمقامات والأحوال التي يصطنعها الصوفية لوجدنا لها أساس من القرآن والسنة وسيتضح ذلك جليًا ما يأتي:

مجاهدة النفس بالرياضات العملية:

إن مجاهدة النفس الأمارة بالسوء وتطويعها للنفس المطمئنة التي يأخذ بها المريد نفسه لينقيها ويطهرها من ألوان الشر ويزكي فيها الخير، ويحارب فيها الشهوة والهوى، من أهم الأسس التي بني عليها الطريق الصوفي.

ومن أوائل الخطى التي يخطوها سالك هذا الطريق الصعب، ولذلك أهتم الصوفية اهتماما بالغا بدراسة النفس الإنسانية وعكفوا على مجاهدتها باعتبار أن الله سبحانه وتعالى، خلق الإنسان وجعل نفسه تنطوي على الخير والشر.

وفطرها على حب الشهوة، وفي ذات الوقت جعل الإنسان بالعقل والحكمة، قال تعالى : ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾ [الشمس: ٧-١٠] وقال تعالى : ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ﴾ [يوسف: ٥٣] وقال تعالى : ﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا ۝١١﴾ [الإسراء: ١١].

إذن نفس الإنسان تشتمل على جوانب: جانب النفس اللوامة وجانب النفس المطمئنة، وقد ذكر ذلك في مثل قوله تعالى : ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ [يوسف: ٥٣] وفي قوله تعالى : ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ۝٢٧ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ۝٢٨ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ۝٢٩ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ۝٣٠﴾ [الفجر: ٢٧-٣٠].

كذلك خلق الله للإنسان جانبًا ثالثًا في فنسه، يحاول به أن يكبح جماح النفس الأمارة بالسوء ليطوعها لنفسه المطمئنة وذلك الجانب هو النفس اللوامة التي قال الله تعالى عنها : ﴿وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ۝٢﴾ [القيامة : ٢].

والمطلوب من الإنسان شرعًا أن يزكي الخير في نفسه ويغلبه على الشر، ويبدل صفات نفسه القبيحة بصفات حميدة وذلك ما أمر به الله، وما بلغ به رسله الكرام صلوات الله عليهم وسلم أجمعين.

وفي حديث للرسول محمد صلى الله عليه وسلم قال : "خلق الله الملائكة من عقل بلا شهوة، وخلق الله البهائم من شهوة بلا عقل، وخلق ابن أدم من كليهما، فمن غلب

عقله على شهوته كان خيرا من الملائكة، ومن غلب شهوته على عقله كان أثر من البهائم"[١].

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم في مجاهدة النفس بعد عودته وصحبه من إحدى الغزوات: "رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر"[٢] وكان يعني بالجهاد الأصغر: الحرب مع الكفار، وبالجهاد الأكبر: محاربة أهواء النفس وشهواتها وكبح جماحها وتطويعها للخير، والحق كما أمر الله.

ومن الآيات القرآنية التي تدعوا إلى جهاد النفس قوله تعالى : ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ﴾ [العنكبوت: ٦٩] وقوله تعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ﴾ [الحشر: ١٨] وقوله تعالى : ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩].

وقد أوضح الله تعالى السبيل إلى مجاهدة النفس الأمارة بالسوء، ليسلكه الإنسان الراغب في طاعة الله والمنقاد لأوامره.

ولا يبقى سبحانه وتعالى من وراء ذلك إلا خير الإنسان وسعادته، في الدنيا والأخرة فهو سبحانه لا تنفعه طاعة الطائعين ولا تضره معصية العاصين، ذلك الطريق هو الذي سلكه الصوفية وسار فيه المريدون، مبتغين طاعة الله والتقرب إليه.

وقد تضمن الشرع هذا السلوك في العبادات التي تحكم العلاقة بين الله سبحانه وتعالى والإنسان كالصلاة، والصوم، والزكاة، والحج، وغيرها، وفي المعاملات التي تحكم العلاقة بين الإنسان وأخيه الإنسان، وتنظيمها، فتوضح ما له وما عليه.

---

(١) رواه البخاري في صحيحه كتاب الإيمان: كتاب الإيمان: ٢٠ ومسلم في صحيحه ج٣ : ص١٢١٩.

(٢) أخرجه الكرماني : ١٣ : ٩٥ شرح الكرماتي: طبع البهية ١٣٥٦ هـ- فتح البار ٦ : ٤ : طبع الأميرية ١٣٠١ هت- وعمدة القاري، للعيني: ٦ : ٥٣١ ، طبع الأستانة ١٣٠٥ هـ والقسطلاني: ٥ : ٣٤ طبع الأميرية ١٣٠٥ هـ- كتاب الجهاد.

ومن الآيات القرآنية التي توضح جوانب هذا الطريق قوله تعالى : ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ [الأنعام: ١٥١] وقوله تعالى : ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾ [النازعات: ٤٠-٤١] .

وقوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾﴾ [المائدة: ٥٤].

ومن الأحاديث النبوية التي يرى الصوفية أنها تصفهم وتصور أعمالهم، قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: " إن من عباد الله لأناسًا ما هم بأنبياء ولا شهداء، يغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة بمكانهم من الله عز وجل .

قال رجل: فمن هم وما أعمالهم ؟ لعلنا نحبهم، قال (ص): قوم يتحابون بروح الله عز وجل من غير أرحام بينهم، ولا أموال يتعاطونها بينهم والله أن وجوههم لنور، وأنهم لعلى منابر من نور لا يخافون إذا خاف الناس، ولا يحزنون إذا حزن الناس ثم قرأ إلا أن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون".

وقد أدرك الصوفية معنى قوله تعالى: ﴿فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟ ۚ﴾ [النساء: ١٣٥] وقوله تعالى: ﴿ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ﴾ [الحديد:٢٠]. وقوله تعالى: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ﴾ [الأعراف:١٧٦].

وعرف الصوفية أن العبادة المشفوعة بالتفكر في الله والخشوع والتأمل، هي العبادة الصادقة، التي تنهي عن الفحشاء والمنكر والبغي، وتطهر النفس، وتصفي القلب، وتنقي السريرة، وتعد قلب المالك للمعرفة الذوقية.

فمن عرف نفسه عرف ربه، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم، لأن من عرف نفسه على أنها ضعيفة، عرف ربه على أنه قوي ومن عرف نفسه ناقصة عرف ربه بصفات الكمال والجلال، ومن عرف نفسه بمعنى العبودية، عرف ربه بمعنى الربوبية قال القشيري في "الرسالة": "اعلموا -رحمكم الله- أن شيوخ هذه الطائفة بنوا قواعد

أمرهم على أصول صحيحة في التوحيد، صانوا بها عقائدهم عن البدع، ودانوا بما وجدوا عليه السلف، وأهل السنة من توحيد"[١].

ويقول ابن عطاء الله السكندري : "لولا ميادين النفوس ما تحقق سير السائرين إذ لا مسافة بينك وبينه (أي: الله تعالى) حتى تطويها رحلتك ولا قطعة بينك وبينه حتى تمحوها وصلتك[٢].

وقد وضع الصوفية آداب للسلوك التي يجب على المريد أن يتخلق بها في رياضة نفسه ومجاهدتها من ذلك الرياضات العملية والرياضات الروحية التي تجمع حواس الصوفي وقلبه على العمل للتقرب إلى الله وجميعها مستقاه من كتاب الله وسنة رسوله كما سنرى والرياضات العملي التي يصطنعها الصوفية هي عماد مجاهدة النفس وسندها وهي الدرع الواقي لسالكي طريق التصوف من الزلل وهي تقوى الإرادة والعزيمة.

وتتمثل الرياضات العملية عندهم في العبادات التي تتضمن الصلاة، والصوم، والسهر، والصمت، والعزلة، والخلوة، والذكر، والسماع، وغيرها من الرياضات العملية، التي يأخذ بها الصوفية أنفسهم ويؤدونها بأجسادهم وقلوبهم وهم يتفكرون في الله.

ويهتم الصوفي بالغرض الكامن وراء كل عبادة ورياضة وجميع الرياضات مستمدة أساسا من القرآن والسنة كما أسلفنا وسنبدأ برياضة الصلاة، ونوضح أثرها على سلوك المسلم.

---

(١) القشيري: الرسالة ص٣.

(٢) د. أبو الوفا التفتازاني: ابن عطاء الله السكندري وتصوفه ط٢ ص١٦٧.

أ- الصلاة:

إن الصلاة كما يعرف كل مسلم هي عماد الدين، من أقامها فقد أقام الدين ومن هدمها فقد هدمه، وقد اهتم الصوفية اهتمامًا خاصًا بالصلاة وجعلوها عمدة الرياضات العملية لما لها من تأثير فعال في تهذيب النفس البشرية وهدايتها، ولأن المصلى يقف أثناء تأديته لهذه العبادة بين يدي الله، فالصلاة تقرب العبد إلى ربه قال تعالى : ﴿وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب﴾ [العقل: ١٩] وتنهاه عن الفحشاء والمنكر والبغي قال تعالى : ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

ويجب على المصلي أن يقوم بصلاته وهو حاضر القلب والعقل والفكر مع الله، فالصوفية يهتمون أشد الاهتمام بالجانب القلبي أو الروحي الباطن في الصلاة، كما يهتمون بالجانب الظاهر الذي يتمثل في أركان الصلاة من قيام، وركوع، وسجود، وجلوس للتشهد، وقراءة القرآن في كل ركعة، والتكبير، كما نظم ذلك المشرع العظيم، فهذا القسم من الصلاة ضروري كلف به الله الإنسان البالغ حتى تتشبه الأبدان بالأرواح.

أما الجانب الروحي في الصلاة فترجع أهميته عند الصوفية إلى أنه هو الغرض الحقيقي المطلوب من الصلاة وهو منجاة الله عز وجل بالقلب.

وقد قال الغزالي في ذلك: "إن المصلى يناجي ربه عز وجل، كما ورد به الخبر والكلام مع الغفلة ليس مناجاة البتة"(١).

وبعد أن أنهى الغزالي حديثه عن عظمة الصلاة، في مصنفه "إحياء علوم الدين" قال: "وما أرى أن هذه العظمة كلها للصلاة، من حيث أعمالها الظاهرة إلا أن يضاف إليها المقصود من المناجاة... وحاصل الكلام أن حضور القلب هو روح الصلاة(٢).

وقد أشار الغزالي إلى تلك المعاني الباطنة التي تتم بها حياة الصلاة في ستة أشياء(٣):

---

(١) الغزالي: إحياء علوم الدين ج١ ص ١١٠.

(٢) المرجع السابق، نفس الصفحة

(٣) الغزالي: إحياء علوم الدين ج١ ص ١١٠.

١- حضور القلب.
٢- تفهم وتعقل معاني الآيات والعبادات التي تتلى في الصلاة.
٣- تعظيم اللذة عز وجل في الركوع والسجود.
٤- هيبته تعالى.
٥- رجاء العفو والتقبل.
٦- الحياء من التقصير.

وإذا كان الصوفية يهتمون بالصلاة ويكثرون منها وخاصة النوافل والتهجد والقيام أثناء الليل ويعولون كثيرًا على الرياضات الروحية الكامنة في الجانب الباطن من الصلاة.

لأن ذلك يتناسب مع صفاء نفوسهم، وتطلعهم إلى ما وراء الظاهر إلى جانب اهتمامهم بالجانب الرياضي الحركي فإن تلك الرياضة مستمدة من الكتاب والسنة في جانبيها الظاهر والباطن قال تعالى : ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

وقال تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [البقرة: ٥٤] وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾﴾ [النساء: ١٠٣] وقال تعالى: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ﴾ [الإسراء : ٧٨].

وقال تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِى﴾ [طه: ١٤] وقال تعالى: ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [البينة : ٥] . وقال تعالى : ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾﴾ [الماعون: ٤-٥] وقال تعالى : ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾﴾ [المؤمنون: ١-٢].

فالصلاة مع الخشوع فريضة شرعية، واجبة فليس للعبد من صلاته، إلا ما عقل منها، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقال تعالى : ﴿ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ﴾ [الحج: ٧٧].

ب- الصوم:

ويروض الصوفي نفسه ويهذبها من سلطة الشهوات بالصوم لأن الصوم وسيلة فعالة في التحكم في النفس وكبح جماحها وعدم الاستسلام للذاتها، وإشعارها بالحرمان حتى تخمد بشرية صاحبها، وتعلو روحانياته، فترق الحجب بينه وبين ربه ويرقق قلبه فيشعر بما يعانيه الفقراء والمحتاجين ويقلل كلامه ويعوده الصبر، والرضا بالقليل، ويخرج الشر من طبيعته.

ولذلك فقد جعل الله الصوم واجب على كل مسلم ومسلمة، من القادرين البالغين وجعل عمل الإنسان له إلا الصوم فإنه لله، وكانت رائحة فم الصائم عند الله أطيب من رائحة المسك، ومن هنا فإن الصوفية يعولون كثيرا على الصوم، كرياضة عملية تهذيب النفس وترفقها وتسمو بالروح وتقويها.

يقول عبد الوهاب الشعراني في ذلك :" أركان الطريق أربعة: الجوع، والعزلة، والسهر، وقلة الكلام، وإذا جاع الصائم تبعته الأركان الثلاثة بالخاصية، إذ الجوعان من شأنه أن يقلل كلامه ويكثر سهره، ويجب العزلة عن الناس[١].

والصوم عند الصوفية ليس مجرد الامتناع عن الطعام والشراب وإنما هو صوم عن كل ما يغضب الله ويبعدهم عن حضرته تعالى من قول أو فعل، فتلك هي الحكمة الأساسية من الصوم ولما كان الصوفية يهتمون ببواطن الأمور.

حتى أطلق عليهم أهل الباطن مقابل الفقهاء الذين أطلق عليهم أهل الظاهر فإنهم جعلوا ظاهر الصوم هو الامتناع عن المأكل والمشرب في الوقت الذي حدده الشارع وجعلوا باطن الصوم ترقيق القلب وتهذيب النفس، والتغلب على شهواتها.

وقد استند الصوفية في ذلك على ما جاء في كتاب الله وسنة رسوله الكريم (ص) في هذه الشريعة الواجبة، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ [البقرة:١٨٣].

---

(١) عبد الوهاب الشعراني: كشف الحجاب والرأف عن وجه أسئلة الجان ص ١١٤.

وقد جعل الله الصوم كفارة للكثير من الذنوب كما جاء في مثل قوله تعالى: ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ﴾ [المائدة: ٨٩] ومن أمثلة الآيات القرآنية التي تتناول الصوم قوله تعالى : ﴿وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٤] وقال تعالى : ﴿فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٤].

والرسول صلى الله عليه وسلم قد أوضح أن الصائم الذي لم يلتزم بالأخلاق الحميدة والأقوال الطيبة، التي هي الغرض الأساسي من الصيام فإنه لا يجني ثمرة هذا الصيام، وليس له من صيامه إلى الجوع والعطش.

ولا ريب أن الصوم يهذب أخلاق المسلم ويرقق قلبه ويكبح جماح نفسه الأمارة بالسوء والصيام يجب أن يكون عن الألفاظ النابية، والأخلاق السيئة، والأعمال الشريرة، وكل ما يغضب الله إلى جانب الامتناع عن الطعام والشراب.

وهذه هي الحكمة من الصوم ومن هنا فإن رياض الصوم تلعب دورا كبيرا في تهذيب أخلاق المسلم وتحسين طباعه.

ج- السهر:

ومن الرياضات العملية الهامة، التي يروض بها الصوفي نفسه، في سلوكه الطريق إلى معرفة الله، السهر للتعبد والصلاة، والذكر والمناجاة، محاولة التقرب إلى الله والأنس به.

وفي السهر مخالفة للنفس التي تميل بطبيعتها إلى الراحة والنوم والكسل وتصفية القلب من أدران الغفلة وتهيأته لتلقي المعرفة الذوقية عن الله.

فالصوفي لا ينام إلا إذا غلبه النوم ولا يستسلم لما يستشعره من لذة النعاس، فإن رأس مال المريد مخالفة هوى نفسه وعدم الركون إلى الراحة والغفلة عن الله، يقول السهروردي البغدادي: "إن النوم يقسي القلب ويميته"(١).

وقد أوحى الله إلى داوود عليه السلام: "يا داوود كذب من ادعى محبتي فإذا جنة الليل نام عني"(٢).

وقد استند الصوفية في تهذيب نفوسهم برياضة السهر، على مثل قوله تعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ١ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ٢ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ٣ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا ٤ إِنَّا سَنُلۡقِي عَلَيۡكَ قَوۡلٗا ثَقِيلًا ٥ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡئٗا وَأَقۡوَمُ قِيلٗا ٦ إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبۡحٗا طَوِيلٗا ٧ وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلًا ٨﴾ [المزمل : ١-٨].

وفي هذه الآيات الكريمة، يأمر الله رسوله محمد (ص) أن يترك التزمل والتغطي وينهض إلى القيام لربه(٣)، كما قال تعالى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمۡ عَنِ ٱلۡمَضَاجِعِ يَدۡعُونَ رَبَّهُمۡ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ١٦﴾ [السجدة: ١٦] وقال تعالى : ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا ٧٩﴾ [الإسراء : ٧٩].

---

(١) السهروردي البغدادي: عوارف المعارف ص ٣٤٢.

(٢) عبد الوهابب الشعراني: كشف الحجاب ص ٧٢ وانظر له أيضًا الأنوار القدسية في معرفة آداب العبودية ص ٦٠.

(٣) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم ج٤ ص ٤٣٥.

والصوفية في ممارستهم لرياضة التعبد، والابتهال، والصلاة، وقراءة القرآن، والأوراد، ليلا، يقتدون برسولهم الكريم صلى الله عليه وسلم.

وفي تفسير قوله تعالى : ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡئٗا وَأَقۡوَمُ قِيلٗا﴾ قال قتادة وأبو حازم ومحمد بن المنكدر وهم من كبار المفسرين: أن ناشئة الليل هي ساعاته ، وأوقاته وكل ساعة منه تسمى ناشئة، وهي الأنات، المقصود أن قيام الليل هو أشد مواطأة بين القلب واللسان، وأجمع على التلاوة، ولهذا قال تعالى: ﴿هِيَ أَشَدُّ وَطۡئٗا وَأَقۡوَمُ قِيلٗا﴾ أي أجمع للخاطر في أداء القراءة وتفهمها من قيام النهار، لأنه وقت انتشار الناس، ولغط الأصوات، وأوقات المعاش، ولذلك قال تعالى : ﴿إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبۡحٗا طَوِيلٗا ٧﴾ [المزمل:٧] أي: لك في النهار حوائجك فافرغ لدينك بالليل[1].

ولا ريب أن المسلم الذي يسهر الليل مناجيا ربه بالذكر والصلاة، والدعاء، لابد أن يكون لكل ذلك، أثره الواضح على تهذيب أخلاقه، وحسن سلوكه.

---

(١) ارجع إلى ابن كثير: تفسير القرآن العظيم: جـ٤ ص ٣٣٥ – ص٨.

د- الدعاء والأوراد:

ويعتبر الدعاء من الرياضات العملية الهامة لدى الصوفية، التي تعينهم على التقرب إلى الله وتجلي الصدور وتصفي النفوس وتشعر المريد بعظمة الخالق، وقدرته، وجبروته، وكرمه، ورحمته، وشدة قربه، والأنس به، والخوف منه، والرجاء لثوابه، ومغفرته.

يقول أبو حيان التوحيدي في "الإشارات الإلهية[١]: "ما أشوقني والله إلى أن أرى مريدا له من القراءة والورد، ومن الركوع والسجود، وظيفة ومن الصمت، والفكر قسط، ومن التسبيح، والتهليل ساعة، ومن التفكير في الملكوت سهم، ومن الرغبة في الموعود حرص، ومن الإشفاق من الوعيد فرق".

ويقول أبو حيان أيضًا :" فأما الشوق الأعظم والحنين الأعم فإنما هما إلى عارف، قد تربع على سرير الرضا واطمأن إلى ركن الثقة بالمولى، وشهد الغيب من وراء ستر الفنا، فإن قال فعنه، وإن تهالك فعليه، له مع نفسه شأن، ومع الحق شأن، ومع الناس شأن، فأما شأنه مع نفسه ففي تصفيتها من كدر حجب الله، وأما شأنه مع الحق باستملاؤه منه كل ما يسهل الطريق إلى الله عز وجل، وأما شأنه مع الناس فكل ما عاد بالجدوى عليهم من الرقة والرحمة والرأفة واللطف عند الدعاء إذا تكرر منه"[٢].

وقد استند الصوفية في رياضة أنفسهم بالدعاء إلى مثل قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦] .

وقال تعالى : ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠] فقد رغب الله عباده في الدعاء ووعدهم بأنه يجيب المضطر إذا دعاه.

وجاء في تفسير ابن كثير عن أبي سعيد أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "ما من مسلم يدعو الله عز وجل بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم إلا أعطاه الله بها ثلاث

---

(١) أبو حيان التوحيدي: الإشارات الإلهية ص ٢٣٦ ، حققه وقدم له الدكتور عبد الرحمن بدوي.

(٢) المرجع السابق نفس الصفحة.

خصال : إما أن يعجل له دعوته، وإما أن يدخرها له في الآخرة، وإما أن يصرف عنه عن السوء مثلها"[١] فقد أمر الله بالدعاء. وتوكل بالإجابة.

وقد روي أبو هريرة عن رسول (ص) قوله : "ثلاثة لا ترد دعوتهم: الإمام العدل، والصائم حتى يفطر، ودعوة المظلوم يرفعها الله دون الغمام يوم القيامة وتفتح لها أبواب السماء ويقول: بعزتي لأنصرنك ولو بعد حين"[٢].

ولذا أكثر أنبياء الله من الدعاء وكان إبراهيم عليه السلام يقول : ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ [إبراهيم: ٢٩].

وكان سيدنا إبراهيم عليه السلام يدعو ربه بقوله: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِيۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾﴾ [إبراهيم: ٤٠] والله سبحانه وتعالى يلوم من كان غافلا عن الدعاء والتضرع إليه في مثل قوله تعالى: ﴿وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ﴾ [الأحقاف:٥].

والدعاء يرقق قلب المسلم ويهذب أخلاقه وينمي فيه التواضع وحب الخير، ويجعله من المقربين إلى الله، وإلى الناس.

---

(١) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم : ج١ ص ٣١٩، ورواه الترمذي.

(٢) المرجع السابق، جـ١ ص ٣٢٠.

هـ- الصمت:

يعد الصمت من الرياضات العملية عند الصوفية وقد اعتبروه دليلا على كمال الإيمان، لأنه يتيح للسالك التأمل والتفكر، في قدرة الله وعظمته.

فالصمت يعطي لصاحبه فرصة للتدبير ويسد عليه باب القيل والقال، وما قد ينزلق إليه من التدخل في شئون الآخرين أو الغيبة. أو النميمة، مما يشغله من الله تعالى ولذلك فإن الصوفي قليل الكلام، كثير العبادة، وأن تكلم كان كلامه قليل وعباراته موجزة وتنم عن حكمة وقوة إيمان وتوكل يقول عبد الوهاب الشعراني: " إن لمن ادعى حب الله علامات إن وجدت فيه صدقناه، وذلك أن نراه على الشريعة البيضاء، النقية، لا تلبيس عنده ولا تخليط، ولا شك فيما وعد الله، أو أوعد به، في الدار الآخرة، بل هو صابر على البلاء، راضي بالقضاء حافظ للحال، حامل للذكر، ساكن، ساكت، صامت، مطرق الرأس"(١).

ويقول السهروردي: "فالصمت سقوط النطق لظهور الحق وكل قول لا يليق بالشرع فهو لغو"(٢).

ويستند الصوفية في رياضة الصمت والسكون إلى مثل قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا﴾ [الفتح: ٤] وقال تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣﴾ [النجم: ٣].

وتتفق رياضة الصمت من لغو الكلام، وفاحشه، وعن النميمة والغيبة مع رياضة عملية هامة يصطنعها الصوفية لرياضة وتهذيب أنفسهم وهي رياضة العزلة والخلوة.

وفي حديث لرسول الله صلى الله عليه وسلم قال عبد الله أبي عامر الجهني: "يا رسول الله ما النجاة؟ قال: ليسعك بيتك، وأمسك عليك لسانك، وابك على خطيئتك"(٣).

---

(١) انظر: عبد الوهاب الشعراني: لطائف المنن جـ٢ ص ٥٢.

(٢) السهروردي : عوارف المعارف – ص ٣٠٨.

(٣) خرجه الترمذي من حديث عقب – انظر الغزالي : إحياء علوم الدين ج٢ ص ٣٣٥.

وقال صلى الله عليه وسلم: "من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت"[١].

(١) ذكره ابن جرير في جامع الأصول من أحاديث الرسول القاهرة ١٩٤٩م، ص ١٧٦، ورواه البخاري في باب الأدب، ص ٣١، ص ٥، وفي الرقاق ٣٣ ورواه مسلم في صحيحه باب الإيمان ص ٧٤-٧٧ وابن ماجة في سننه باب الفتن ص ١٤، ورواه الدارمي في سننه باب الصمت ج ص ٢٩٩.

و- العزلة والخلوة:

يعتبر الصوفية العزلة من الناس والخلوة رياضة هامة، حتى لا ينشغل سر السالك إلى الله، وفكره بغير الله والعزلة عندهم تعني أن يكون السالك طريق الصوفية، مع الناس بظاهره، ومع الله بباطنه، فهو يجالس الناس ويخالطهم غير أنه في ذات الوقت يكون مع الله بعقله، وقلبه وروحه.

ويقول ابن عطاء الله السكندري في رياضة العزلة: " المراد من عزله الناس ترك معاشهم، وليس المراد ترك صورهم، بل المراد ألا يكون قلبك ولا أذنك وعاء لما يأتون به من فضول الكلام فلا يخلو القلب من هذيان العالم"(١).

أما الخلوة فإن السالك طريق الصوفية يعد نفسه في حاجة إلى أن يختلي بنفسه، بعيدا عن الناس، يقول عبد الوهاب الشعراني في ذلك : "وإذا كانت العزلة تعني أن يكون السالك مع الناس بجسمه ومع الحق تعالى بقلبه، فإن الخلوة تعني أن يكون السالك منقطعًا عما سوى الله في خلوته بعيدًا عن مجالستهم ومعاشهم فالخلوة عزلة عن الناس بالقلب والبدن"(٢).

ويحبذ الصوفية العزلة للمريد في بداية الطريق لأن السالك طريقهم في بدايته تعوقه الحجب والمشكلات المادية والأحداث الجارية من حوله، وعلاقاته الاحتجاجية فتكون العزلة له أقرب إلى السلامة من كل هذه الشواغل وأبعد إلى تحمل الحقوق في المخالطات وإجراء الاشتغال بالطاعات كما يقول عبد الوهاب الشعراني.

أما الخلوة فإن : "السالك عندما يجد نفسه رغم عزلته لا يزال قلبه مشغول عن الله، وسره لا يزال غير صافي فإنه يلجأ إلى الخلوة حتى يتيسر له تصفية نفسه، بالتقرب غلى ربه، فيعيش منفردا في مكان طاهر نظيف، يختلي بنفسه ويكثر من الصلاة، والذكر والتبتل ومناجاة الله تعالى، حتى تصفو نفسه وتنجلي سريرته ويستنير قلبه بنور الله، ويعد

---

(١) د. أبو الوفا الغنيمي التفتازاني: ابن عطاء الله السكندري وتصوفه ط٢ ص ١٨٧.

(٢) الشعراني: الأنوار القدسية في معرفة قواعد الصوفية ج١ ص ٩٨.

ما يتمكن منه حب الله والخشوع له يعود مرة ثانية إلى مخالطة الناس والاهتمام بشئون الحياة".

وقد استند الصوفية في رياضة العزلة والخلوة ومشروعيتها لتهذيب النفس وتنقيتها باختلاء الرسول صلى الله عليه وسلم في غار حراء يمضي فيه شهر رمضان من كل عام حتى صفت سريرته وسمت نفسه وصار أهلا لتقبل وحي السماء.

وباعتكافه في المسجد العشرة الأخيرة من رمضان، كما استندوا إلى مثل قوله تعالى : ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ٥٠﴾ [الذاريات: ٥٠].

كما استندوا إلى قوله تعالى حاكيا عن إبراهيم عليه السلام: ﴿وَأَعۡتَزِلُكُمۡ وَمَا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدۡعُواْ رَبِّي﴾ [مريم : ٤٨] ثم قال تعالى: ﴿فَلَمَّا ٱعۡتَزَلَهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۖ وَكُلّٗا جَعَلۡنَا نَبِيّٗا﴾ [مريم: ٤٩].

ويقول الغزالي[١]: وإن كان الاحتجاج هنا ضعيف؛ لأن مخالطة الكفار لا فائدة فيها إلا دعوتهم إلى الدين، وعند اليأس من إجابتهم فلا وجه إلا هجرهم.

وإنما الكلام عن مخالطة المسلمين، وما فيها من البركة غير أن من المسلمين من يشاهد في المجالس لا يتكلم إلا بما هو اغتياب للناس والغيبة من أشد الذنوب وينصح المريد أن يبعد عن هذه المجالس بقوله: "وفر من الناس فرارك من الأسد، لأنك لا تشاهد منهم إلا ما يزيد في حرصك على الدنيا، وغفلتك عن الآخرة، ويهون عليك المعصية ويضعف رغبتك في الطاعة"[٢].

ففي العزلة الخلاص من الفتن والاستئناس بالله.

ويستند الصوفية أيضًا إلى حديث رسول الله حين قيل له: أي الناس أفضل ؟ قال : "رجل مؤمن مجاهد بنفسه وماله في سبيل الله تعالى، قيل: ثم من؟ قال: رجل معتزل في شعب من الشعاب يعبد ربه ويدع الناس من شره"[٣].

---

(١) انظر حديث الغزالي عن العزلة في كتابه إحياء علوم الدين، دج٢ ص ٢٢١ ، وما بعدها.

(٢) المرجع السابق ، ج٢ ص ٣٣٢.

(٣) يقول الغزالي: إن هذا الحديث متفق عليه من حديث أبي سعيد الخدري: انظر الإحياء ج٢ ص ٢٢٥، أخرج هذا الحديث الكرماني: ٢ : ٩٥ طبع البهية سنة ١٣٥٦ هـ، وعمدة القاري للعيني، ٦ :

ويذهب الغزالي أن العزلة يجب أن تكون من الجليس السوء، أما الجليس الصالح فيجب الاختلاط به ويقول: "فإن وجدت جليسًا يذكرك الله رؤيته وسيرته فالزمه ولا تفارقه واغتنمه ولا تستحقره فإنها غنيمة العاقل وضالة المؤمن، وتحقق أن الجليس الصالح خير من الوحدة، وأن الوحدة خير من الجليس السوء"[(١)].

وقد عبرت رابعة العدوية (ت ١٨٥هـ) عن رياض العزلة في أبيات شعرية فقالت مناجية ربها:

إنّـي جَعلتـكَ فـي الفـؤاد محـدّثي وأبحـتُ جسـمي مَـنْ أراد جلوسـي
فالجســمُ منــي للجلـيس مـؤانس وحبيـبُ قلبـي فـي الفـؤاد أنيسـي[(٢)]

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : " كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعتكف العشر الأواخر من رمضان"[(٣)].

وعن ابن عمر رضي الله عنهما: أن عمر سأل النبي صلى الله عليه وسلم قال : "كنت قد نذرت أن أعتكف ليلة في المسجد الحرام، قال : أوف بنذرك[(٤)].

=

٥٣١ ، طبع ١٣٠١ هـ، والقسطلاني ٥ : ٣٤ طبع الأميرية ١٣٠٥ هـ، وأخرجه أيضًا مسلم وأبو داود في الرقاب والترمذي والنسائي، في الجهاد وأبي ماجة في (الفتن).

(١) الغزالي : إحياء علوم الدين، ج٤ ص ٢٦٦.

(٢) المرجع السابق نفس الصفحة.

(٣) أخرجه الكرماني ٩ : ١٦٦ البخاري – فتح الباري ٤ : ٢٣٥، وعمدة القاري للعيني ٥ : ٣٧٤، والقسطلاني ٣ : ٤٤٠ وأخرجه مسلم وأبو داود والترمذي وابن ماجة والنسائي في الصلاة والاعتكاف.

(٤) أخرجه الكرماني ٩ : ٢٧٣ طبع البهية ١٣٥٦ هـ- وفتح الباري ٤ : ٢٤٤ طبع الأميرية ١٣٠١هـ- والقسطلاني ٣ : ٤٦٦، طبع الأميرية ١٣٠٥ هـ، وأخرجه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي وابن ماجة في الصوم والنسائي في الصلاة والاعتكاف.

س - الذكر:

تعد رياضة الذكر من الرياضات العملية الهامة التي يصطنعها الصوفية، ويعولون عليها كثيرًا لتلطيف السر والوصول إلى حالة الوجد، وتهيئة القلب لاستقبال الفيوضات الإلهية.

والذكر يكون بترديد اسم الله كاملا، كأن نقول: الله، أو: لا إله إلا الله، أو: سبحان الله والحمد لله. أو غيرها من عبارات الذكر.

وقد يكون الذكر فرديًا وقد يكون جماعيًا، ويبدأ الذكر باللسان والقلب ثم ما يلبث أن يسكت اللسان ويبقى ذكر القلب، فيحدث الوجد والفناء.

يقول أبو حيان التوحيدي في الذكر : "يا هذا إذا ذكرته فاذكره واجدا به، إذا وجدته فجد ذاكرًا له، على أن الذكر وجد أيضًا. ولكن من ناحية العبادة، والوجد ذكر أيضًا ولكن من ناحية الاستفادة.

والوجد مستغرق للصفات كلها بالمحو والذكر مستفرش[1] للسمات كلها بالزهو، فإذا اصطرع الذكر والوجد كانت الغلبة للوجد، لأن الذاكر قد يذكر وهو غير واجد.

والواجد لا يجد إلا وهو ذاكر، على أن هذا الذكر ليس من مراسم اللسان، ولا من مناسم الفكر، ولكنه أول من المذكور، وثاني من الذاكر"[2].

والذكر عند الصوفية له آداب فيجب على الذاكر أن يتطهر ويتوضأ ويقتبل القبلة، وألا يذكر وهو غافل بفكره عن الله وإنما لابد أن يتوجه بكليته إليه.

ويستغرق في الذكر فلا يلتفت إلى شيء، ولا ينشغل إلا بالمذكور ولا يزال يذكر بقلبه حتى يستغرقه الذكر ويملك عليه كل جوارحه فيكف عن ذكر اللسان ويبقى ذكر القلب.

فيفنى عما حوله ثم يفنى عن نفسه ويبقى بالله الذي يفيض عليه الإشراقات النورانية والمعارف الفيضية ويستغرق في الوصال.

---

(١) مستفرش أي يستعرضها ويبسطها.

(٢) أبو حيان التوحيدي: الإشارات الإلهية ص ٣١٧ ، تحقيق د. عبد الرحمن بدوي.

يقول القشيري في الذكر : "من ذكر الله تعالى ذكرًا على الحقيقة نسي في جنب ذكره كل شيء وحفظ الله تعالى عليه كل شيء وكان له عوضا في كل شيء"(١).

ويحلل أدلر(٢) وهو أحد علماء النفس المعاصرين كيف تتم عملية الاتصال الروحي بين الذاكر وربه وكيف يغيب الذاكر عما سوى المذكور.

وكيف أن الحق تبارك وتعالى يسيطر على بؤرة شعور الذاكر وينمحي ما عداه تعالى من فكره فيفني عن كل شيء ويبقى بالله فيقول : "إن الحياة النفسية للإنسان تتردد تبعا للغايات التي ينجو الفرد نحوها.

فالنفس الإنسانية تتجه في نشاطها اتجاها غائيا؛ لأن الغاية التي يسعى نحوها الشخص وينشط لتحقيقها وتكون هي العامل الحاسم في توجيهه ويكون العقل في هذه الحالة مجموعة معقدة من القوى المحركة، التي تصدر عن علة واحدة وتجاهد لتحقيق هدف واحد:(٣).

ذلك الهدف عند الصوفية هو الاتصال الروحي والقلبي بالله، وفي ذلك يقول الحسن البصري (٢١ هـ- ١١٠ هـ): تفقد حلاوة الإيمان في ثلاثة أشياء: في الصلاة، والذكر، وقراءة القرآن، فإن وجدتم وإلا فاعلموا أن الباب مغلق".

والذكر المخلص لله يؤدي بالذاكر إلى تطهير نفسه وتخليتها من الشوائب التي تبعد الإنسان عن ربه فالذاكر لله لا يأتي بالأعمال التي نهى الله عنها ويتخلق بالأخلاق الكريمة ومن هنا فقد اعتبر كل عمل يرضي الله وينفع الناس ابتغاء مرضاة الله ذكرًا.

وخاصة إذا ظل الله في فكره وقلبه فإن ذلك يجعله يخشاه في كل أقواله وأفعاله، ويقول (يابنسكي) أحد علماء النفس المعاصرين: "إذا سيطرت فكرة على الإنسان وظلت مسيطرة، بلغت من قوتها ما تستطيع به كف الأفكار المناهضة لها"(٤).

---

(١) القشيري: الرسالة: جد٢ ص ٤٦٦.

(٢) Adler: understanding human nature, p. ١٩ london, ١٩٣٠

(٣) أبو القاسم القشيري : الرسالة القشيرية ج٢ ص ٤٦٧ تحقيق د. عبد الحليم محمود ومحمود بن الشريف.

(٤) انظر: د. إسحاق رمزي: علم النفس الفردي أصوله وتطبيقاته ص ٣٠ دار المعارف سنة ١٩٦١.

ولهذا السبب يحدث للصوفي الذاكر في حالة الفناء التي هي لحظة خاطفة يفنى فيها عن نفسه ويبقى بربه ويفيض سبحانه على قلب الصوفي المعارف القلبية الذوقية.

ويستند الصوفية في تهذيب أنفسهم برياضة الذكر على مثل قوله تعالى : ﴿فَٱذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِي﴾ [البقرة: ١٥٢] .

وقوله تعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾﴾ [الأحزاب: ٤١] وقوله تعالى : ﴿وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الأنفال:٤٥، الجمعة: ١٠] وقوله تعالى : ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾ [آل عمران: ٤١] وقوله تعالى : ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ [الكهف : ٢٤].

ص - السماع:

يعتبر السماع عن الرياضات العملية التي يعول عليها الصوفية في ترويض نفوسهم وترقيق قلوبهم وهو عندهم من أهم الطرق الموصلة إلى حالة الوجد هو والذكر.

ولا ريب أن الصوفي بطبيعة الحال إنسان رقيق الإحساس، صافي القلب، نقي النفس، تتأثر روحه بالنغمات العذبة، ويطربه سماع الألحان والأنغام، التي تتغنى بصفات الله ومدح رسوله الكريم.

فحقيقة السماع في تنبيه القلب إلى معاني المسموع فإذا ما سمع المالك صوتًا جميلاً خاشعًا يقرأ القرآن أو ينشد الألحان الدينية فإنه ينجذب بروحه إليه وتنفعل بها نفسه، وتجيش عواطفه ويتعقل معاني الألفاظ والعبارات ويتأثر بها فتولد في قلبه شعور من الوجد والجذب يؤدي به إلى حالة من الغناء والإشراق.

يقول ابن قيم الجوزية: فالسماع عندهم (أي الصوفية) رسول الإيمان إلى القلب وداعيه ومعلمه"[١].

والسماع عند الصوفية الكُمَّل، يكون بالاستماع إلى آيات الذكر الحكيم، والإنصات في تمعن وخشوع وتعقل للآيات ومعاني ما يتلى منها، يجعل السامع يدرك مراميها ويتفهم مقاصدها ويتدبر الحكمة منها، وينفعل بها يقول ابن القيم في هذا النوع من السماع: "هو سماع الآيات لا سماع الأبيات، وسماع القرآن لا سماع الشيطان، وسماع كلام رب الأرض والسماء لا سماع قصائد الشعراء، وسماع المراشد لا سماع القصائد، وسماع الأنبياء والمرسلين، لا سماع المغنيين والمطربين"[٢].

وهذا النوع من السماع لا تصدر من صاحبه حركة أثناء سماعه بل أنه يأخذ طريقه إلى قلبه فيخشع وإلى روحه فتسمو، وإلى عقله فيتفهمه، وإلى أوصاله فيثير فيه من المشاعر والأحاسيس ما يرفع همته، ويقوي عزيمته، ويقربه إلى الله، وتغمر تلك

---

(١) ابن القيم : مدارج السالكين، ج١ ص ٣٧٢.

(٢) ابن قيم الجوزية: مدارج السالكين طبعة أولى ج١ ص ٢٧٤.

المشاعر الفياضة وجدانه، يقول الغزالي: "اعلم أن السماع هو أول الأمر ويشعر السماع حالة في القلب تسمى الوجد ويثمر الوجد تحريك الأطراف"(١).

أما النوع الثاني من السماع فهو سماع الألحان فالصوفي يطرب لسماع الألحان والأصوات الجميلة وخاصة التي يشدو فيها المغني، بالأناشيد الدينية والمدائح النبوية بألحان حسنة ونغمات طيبة.

فيكون لصوت المنشد تأثيره في نفس السامع وقلبه، ويتوجه السامع بفكره إلى الله وينفعل بما في المسموع فينشرح صدره وتقوى روحانياته ويحدث له وجد يقول عبد الوهاب الشعراني: "السماع لا يصلح إلا لمن كان قلبه صافيًا ونفسه قد ماتت"(٢).

ويقصد قد ماتت عن الشهوة والهوى.

وسماع الألحان يرقق القلب إذا تأهب السامع نفسيًا للسماع وطرد من خاطره، جميع الأفكار والخواطر وركز كل اهتمامه فيما يسمع فإن ما يسمع من كلام الله أو ألحان المنشد الذي ينشد الألحان الدينية فتتمكن من قلبه المعاني الجليلة فيدخل من عالم الحس إلى عالم المعنى، فيتعقل المعاني، التي تحملها الكلمات فينشرح لها صدره، وتطرب لها نفسه، وتجيش لها عواطفه.

فإذا انفعل بكل هذا حدث له وجد وفناء، لأن كل انفعال نفسي عميق يؤدي إلى حالة من الوجد، ويقول ابن سينا (٣٧٠ هـ- ٤٢٨هـ) في الإشارات والتنبيهات: "إن النفس السليمة على الفطرة والتي لم تحجبها الأمور المادية عن نقاء الفطرة، وصفاء السريرة، وثقافية القلب، ولم يغلظها مباشرة الأمور الأرضية الجاسية إذا سمعت ذكرا روحيا، يشير إلى أحوال المفارقات غشيها غاشا شائق لا يعرف سببه وأصابها وجد مبرح مع لذة مفرحة"(٣).

---

(١) الغزالي: إحياء علوم الدين ، ج٢ ص ٢٦٦.

(٢) عبد الوهاب الشعراني: كشف القناع عن وجه السماع مخطوط بالمكتبة الأزهرية رقم (٩٤٢) حليم ل ٢١١ ظ – تحت في التصوف ضمن مجموعة.

(٣) ابن سينا : الإشارات والتنبيهات ج٢ ص ٢٦.

ويقول أبو حيان التوحيدي : "أيها السامع بالأذن هل لك شرب من هذا المسموع بالقلب؟ أيها الحاضر بالشخص هو لك حاصل من الأنس؟ ايها الواجد بالشوق، هل لك حس بالذوق، أيها المعجب باللفظ، هل لك نصيب من المعنى؟ أيها المعدل بالعبارة هل لك حقيقة في الإشارة؟ أيها المسحور بالبلاغة هل لك بلاغ إلى الغاية؟ أيها المفتن في العلم، هل لك علامة من المعلوم؟"(١).

ومن الآيات القرآنية التي يستند إليها الصوفية في هذه الرياضة قوله تعالى : ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ﴾ [الأنفال: ٢٣] وقوله تعالى: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ﴾ [الجن: ١-٢].

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٤] وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [المائدة: ٨٣] وقوله تعالى: ﴿أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٥١].

وقد اختلفت الآراء حول حل سماع الألحان، واتفقت على أن سماع القرآن لا حرمة فيه، بل واجب على كل مسلم(٢). ومما لا شك فيه أن سماع القرآن وهو سماع الصوفية المتحققين الكُمَّل، يرقق القلب ويصفي النفس ويقوي الإيمان.

وإذا كانت الرياضات العملية من صلاة وصيام وسهر وذكر وسماع وعزلة وخلوة تساعد الصوفي على تهذيب نفسه، ومجاهدة الشر فيها وتزكيه الخير، والتحقق بالأخلاق الكريمة، فكذلك الرياضات الروحية، التي تتمثل في التحقق بمقامات السلوك الصوفي، وهذا هو موضوع الفصل الثاني.

---

(١) أبو حيان التوحيدي: الإشارات الإلهية ص ٢٤٠، تحقيق د. عبد الرحمن بدوي.

(٢) المعرفة لمزيد عن موضوع حل السماع واستماع الأغاني والألحان ارجع إلى : الغزالي : إحياء علوم الدين ج٢.